إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السادسة ـ العدد الثانی والعشرون ـ صیف ۱۳۹۵ش/حزیران ۲۰۱٦م
صص ۲۹ ـ ۹

التفرد الإبداعی عند الشریف المرتضی منهجا ورؤیة؛ قراءة فی کتاب طیف الخیال

نادیة هناوی سعدون*

الملخص

یتناول هذا البحث مفهوم التفرد الإبداعی بوصفه هاجسا نفسیا وملمحا ذاتیا یدفع المبدع إلی التمیز عن أقرانه ومجایلیه رؤیة وتشکیلا لما اکتسبه من أدب وعلم.
ویتضح هذا المفهوم عند الشریف المرتضی فی کتابه (طیف الخیال) من ناحیتی نظم الشعر ونقده، وهو یرصد المعانی ذات الصلة بالطیف والخیال؛ محللا ألفاظه وتراکیبه، وموزعا أشکاله فی أربع صور: أولا، التفرد بالمؤاخذة والرد وثانیا، التفرد بالتمحیص والتأویل وثالثا، التفرد بالانحیاز ورابعا، التفرد بالسبق والصدارة.

پرتال جامع علوم انسانی

الکلمات الدلیلیة: التفرد، المؤاخذة، التأویل، الانحیاز، السبق.

---

*. أستاذة فی النقد الأدبی الحدیث بالجامعة المستنصریة، بغداد، العراق
nada2007hk@yahoo.com

تاریخ الوصول: ۱۳۹٤/۹/۱۸ش تاریخ القبول: ۱۳۹۵/٤/۱۸ش

المقدمة

إذا كان الشريف المرتضى شاعرا مميزا، فإنه أيضا ناقد فذ وكاتب مرموق له أكثر من سبعين مصنفا جمعها الأستاذ أبوالفضل إبراهيم وأضاف الأستاذ الدكتور محمد حسن آل ياسين ثلاثة رسائل نشرتها سلسلة المعارف للتأليف والترجمة والنشر بالنجف. (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٣٢-٢٦)

ولم يكن تفرد الشريف المرتضى فى عصره مقتصرا على الأدب والنقد، بل شمل العلم والمعرفة بمختلف صنوفها وقد تخرج على يديه طائفة من تلامذته أصبحوا بعد ذلک أعلاما كأبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى وأبى يعلى سالار بن عبد العزيز الطبرستانى. (المصدر نفسه: ٤٧؛ الآمدى، ١٩٧٢م)

ويظهر الشريف المرتضى فى كتابه "طيف الخيال" حسا دقيقا وفهما عميقا وبيانا قويا مفصحا عن فهم الشعر بنظرة الشاعر وإحساسه لا بنظرة اللغوى ومقياسه؛ وضمن رؤية انفتاحية تمزج الشعر بالنقد والتأليف بنقد النقد عبر تناوله لآراء المتقدمين فى الطيف والخيال مظهرا فيها مقدرة أدبية ونقدية باهرة.

ويحفل الكتاب باستخراجات شعرية فى الطيف لمتقدمين ومتأخرين، وبوقفات نقدية إزاء قضايا أدبية كثيرة وقد عدَّ المحقق حسن كامل الصيرفى هذا الكتاب من عيون كتب النقد الأدبى «لأن مؤلفه ناقد من الطراز الأول: دقة حس وعمق فهم وقوة بيان وكان يفهم الشعر بنظرة الشاعر وإحساسه لا بنظرة اللغوى ومقياسه وبذلک استطاع أن يصوب أخطاء من سبقوه ويزيد من قيمة هذا الكتاب انه يضم فصلا من كتاب الموازنة للآمدى.» (المصدر نفسه: ٤٧؛ والآمدى، ١٩٧٢م)

وأضاف واصفا الشريف المرتضى بأنه «عالم متمكن من لغة العرب واسع الاطلاع قوى الحجة ناصع العبارة بليغها يرتفع بأسلوبه النثرى الجميل الرشيق الأنيق إلى ذروة سامقة.» الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٢٠)

والمرتضى بحسب رأيه شاعر لا يرتفع إلى مرتبة الناثر أما كونه ناقدا فإن مكانه فى الصدارة فهو بصير بمعانى الكلم دقيق الحس ذواقة للجيد من الشعر يمزج بين الأدب والعلم ويتجلى اطلاعه الواسع فى التحليل والنقد. (المصدر نفسه: ٢١-٢٠)

وجديـر بالذكـر أن الصيرفى بعد أن انتهى من تحقيق كتـاب "طيف الخيال" ألحق به مراجع لمؤلفين سـبقوا الشـريف المرتضى أو تأخروا عنه حقبة مـن الزمن وقد اثبتوا أقوالا للشـعراء فى الطيف من خلال وضع فصول فى مؤلفاتهم عن الطيف فيها مختارات شـعرية لبعض الذين ذكرهم المرتضى أو الذين لم يذكرهم مبتدئا بالشعر والشعراء لابن قتيبة مارا بالموازنة والزهرة وزهر الآداب والحماسة وغيرها، ومنتهيا بنهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى.

وغاية المحقق من وراء ذلک كما قال: «ليكمل هذا الموضوع ويتم لهذا العقد جمانه» (المصدر نفسـه: ١٨٢) ويبدو أن المحقق قد أراد بإدراج تلک الاستخراجات من أمهات الكتب القديمة أن يسـتدرک على الشريف اختياراته أو أن يتحفظ على دعوى الشريف بالسبق والتفرد وليدلل على أن المصادر القديمة قد تناولت ذلک أيضا.

وقد شكل هذا الملحق ما نسبته ٥٠٪ من الكتاب فمن صفحة ١٨٧ إلى صفحة ٣٧٥ أى ما يقارب ١٨٨ صفحة مقابل ١٨١ هى كامل عدد صفحات كتاب طيف الخيال!

التفرد ومنهجية نقد الشعر

التفرد الإبداعى هاجس نفسـى وملمح ذاتى يدفع صاحبه إلى التميز رؤية وتشكيلا متباهيا بالموهبة الفطرية التى حباه الله بها وبما اكتسبه من أدب وعلم.

وهـو فى ذلک كله متزود بحوافـز معلومة ودوافع مقصودة تؤهله لأن يسـلک هذا المسلک فيكون بالنسبة للآخرين ممن جايلوه أو لم يجايلوه مثالا يحتذى وصورة مشرقة للتفرد الإبداعى الطامح إلى التألق بفاعلية وإيجابية أصلا وفرعا.

وعلى مستوى الأدب والنقد كان التفرد عند الشريف المرتضى سمة من سمات الموهبة الفذة والفطرة السليمة ليكون علما أديبا له مسلكه الخاص لغة وصياغة سواء أكان ذلک فى نظم الشعر أم نقده وتلقيه أم فى صوغ النثر والبيان بأشكاله المختلفة.

وقـد درس المرتضى بعض الظواهر الأدبية كما شـخص قضايا فنية وجمالية وعن ذلک قال الشـجرى: «انظر هذا الطبع المتدفق والنسـج المطرد المتسـق من أعرابى قح قيل إنه أول مفتتح لوصف الطيف وكأنه لانطباع سبكه وجودة رصفه لما قال هذا المعنى

الكبير وقلب باطنه ظاهره وباشر أوله آخره.» (الملوحى، ١٩٧٠م: ٦٢١-٦١٣)

ولا يغـدو التفـرد سمة يحملها صاحبها مـا لم يكن على ثقافة عاليـة ودراية عميقة ووافيـة فى الأدب والعلم ليكون له طابعه الخاص ورؤيته الفكرية المخصوصة به لوحده دون غـيره وقد كانت للمرتضى «جولات فى علـم الكلام إذ كان من أقطاب المتكلمين فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ... وظهر ذلک فى مؤلفاته الأمالى والشافى والمحكم والمتشابه وتنزيه الأنبياء.» (قصاب، ١٩٨٥م: ١٢٧)

وشعريا تفرد الشريف المرتضى بالنظم فى مختلف فنون الشعر شأنه شأن أخيه الشريف الرضى الذى قال عنه الدكتور زكى مبارک: «أفحل شـاعر عرفته العربية وأعظم شاعر تنسم هواء العراق» (مبارک، ج١، ١٩٥٢م: ٩)

ولا غرو أن الشاعر لن يحتل موقعا مهما فى العملية الإبداعية ما لم يحمل فى داخله هاجسا نقديا يدفعه إلى أن يتمم بنية كتابة النص بما يضمن لها شروط التلقى والتأويل وقد أدرک المرتضى أن «القارئ شـريک إيجابى فى إعادة الخلق الشـعرى الذى لا يتم إلا به.» (لطفى، ١٩٧٠م: ١٣٦)

ولقـد جمع الشـريف المرتضى الهاجس النقدى جنبا إلـى جنب الهاجس الإبداعى فكان قارئا ناقدا لا يقوم الفعل النقدى عنده إلا على معايير تتعاقد بينه بوصفه منشـئا وبـين نصه ومتلقيه وهـذا ما حقق له «تحريک طاقات اللغة الكامنة واعتمادها فى أداء المعنى على الإيحاء والإشـارة وترک التصريح ... حتى لكأن عملية القراءة تنقلب إلى ضرب من الاستبطان الذاتى وإذ ذاک تصبح لغة النص مجرد قادح تتداعى له المعانى فى النفس..» (حمادى، ١٩٨١م: ٦٢٠)

ولما كان للعامل النقدى أثر مهم فى صحة القراءة؛ فإن ذلک ليس مطلقا بل قد يخضع لحدود وأطر فنية فالقارئ للشـعر يسـتطيع أن يجدد باسـتمرار أفكارا ومعانى جديدة له والشـعر فوق أسـاليب الكلام وفوق التحليل اللغوى والترجمة والموضوع، ذلک أن الشعر فى رأى ابن المدبر (ت٢٧٠هـ) «موضع اضطرار يغتفر فيه الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير.» (الدسوقى البساطى، ١٩٦٥م: ٢٦١)

ويتخـذ منهج التفرد فى كتاب طيف الخيال عدة رؤى اسـتطاعت أن ترصد المعانى

ذات الصلة بالطیف والخیال وتحلل ألفاظه وتراکیبه غزلا وصبابة ووجدا وعشقا؛ وعلی هذا الأساس تنوعت أشکال التفرد الإبداعی عند الشریف المرتضی وکالآتی:

ـ التفرد بالمؤاخذة والرد.

ـ التفرد بالتمحیص والتأویل.

ـ التفرد بالانحیاز أو التغاضی.

ـ التفرد بالسبق والصدارة.

١. التفرد بالمؤاخذة والرد

إن اعتداد الشریف المرتضی بمقدرته النقدیة قد مکنه من تحقیق التفرد الإبداعی الذی کثیرا ما یأخذ صیغة المؤاخذة والرد عبر قراءات تؤسلب قراء سابقین أو مجایلین أو ترفض قراءات شعریة متقدمة وهو مما یدخل فی حقل نقد النقد.

ولکی یحقق الناقد قراءة رادة أو مؤاخذة فلا بد أن یمتلک ذاتا قادرة علی استنطاق المقروء واستلهام مکوناته، وقد اتخذ التفرد بالمؤاخذة سبیل الموازنة ما بین قراءات الآمدی لشعر أبی تمام وبین قراءات المرتضی لشعر هذا الشاعر ومن ذلک تعقیب المرتضی علی قراءة الآمدی للأبیات:

زار الخیال لها لا بل ازارکه　　فکر إذا نام فکرُ الخلق لم ینمِ

ظبی تقنصته لما نصبت له　　من آخر اللیل إشراکا من الحلم

ثم اغتدی وبنا من ذکره سقمٌ　　باق وان کان معسولا من السقم[1]

(عزام ومحمد عبدة، ١٩٧٠م: ١٨٦-١٨٥)

وقد عدَّ الآمدی الشطر الأول من البیت الأول لیس بالجید فرد المرتضی علیه معتذرا لأبی تمام «فأی معنی لقوله إنه لیس بالجید وقد فطن من غرضه لما فیه العذر وزوال العیب والقدح فکأنه جمع بین الشیء وضده» (الشریف المرتضی، ١٩٦٢م: ٩)، ثم أخذ یفصل الرد بالوقوف عند الألفاظ واحدة واحدة منتقلا إلی الشطر الثانی من البیت الأول فلم یجد مشکلا فیه لاسیما أن إبدال لفظ الخلق بالخلو لا بأس بها، لینتقل

١. وفی الدیوان (فی آخر اللیل) و(مشغولا عن السقم).

إلى الشـطر الثانى من البيت الثالث الذى وجده الآمدى ليس بشىء «يريد أنه لا ينام بالليل وأنه يسـهره وأنه يهوم فى آخره تهويما فيطرقه الخيال فى ذلک الوقت.» (المصدر نفسه: ١١)

فردَّ المرتضى داحضا تلک القراءة مضيفا وجها آخر لقول الشاعر آخر الليل وليس أول الليل ليقول: «إن الخيال لا يطرق فى العادة إلا مع وقور النوم وغزارته والاستثقال فيه وهذا إنما يكون فى أواخر الليل ومع اسـتمرار النوم وطول زمانه فلهذا خص آخر الليل.» (المصدر نفسه: ١١-٧)

ومن المؤاخذات الأخرى التى سـجلها الشريف المرتضى على الآمدى طعن الأخير علـى أبيات لأبى تمام فرد المرتضـى «فأما طعن الامدى على الأبيات الميمية التى لأبى تمـام ودعـواه أنه لا حلاوة لها ولا طلاوة فمن قبح العصبيـة لأن قوله .. صحيح الوضع مليح المعنى لأنه إذا كان لا تلاقى بينه وبين محبوبه نهارا ولا وصل ولا قرب وأن ذلک كله يكون ليلا فالليل أنفع له من النهار وأمتع وأى شىء يراد من أبى تمام أن ينتهى إليه فى هذا البيت أكثر من هذا.» (المصدر نفسه: ١٩)[١]

وإذا مـا أعجب الآمدى ببيتين للبحترى لأنه «لا شـبهة على متعصب فى حسـنها ونصوعها» فإن المرتضى يرد مؤاخذا الآمدى ومتسائلا كيف أنه وجد فى أبيات أخرى أنها أحسـن وأحلى مرجحا أن تفضيلها على الأولى غير صحيح. (المصدر نفسه: ٢٣-٢٢)

ومثـل ذلک أيضا إعجاب الآمـدى بأبيات للبحترى إذ قـال: «وهذا والله الكلام العـربى والمذهب الذى يبعد على غـيره أن يأتى بمثله ـ فجاء المرتضـى بقراءة رادة ـ ونقـول: إن الوصف يقصر عن بلاغة هذه الأبيات وبراعتها وسـلامتها وإنما بعجب من طروق الخيال مع الأرق الذى يشِّرد الخيال فلا يكون معه فى موضع العجب.» (المصدر نفسه: ٣٠)

ولمـا وجد الآمدى فى أبيات تسـعة للبحترى أنها «لو وردهـا الظمآن لروى لكثرة

١. والبيت الذى مثل به، هو:

الليالى أخفى بقلبى إذا ما جرحته النوى من الأيام

مائـه» رد المرتضـى معتدا بذوقه ومنفـردا بالقراءة لا أكثر «وأقول: إنـه قد تقدم فيما أوردنـاه للبحترى من هذا الباب ما هو من هذه الأبيـات انصع وأطبع وأحلى وأعلى وأعبق بالقلوب واعلق بالنفوس.» (المصدر نفسه: ٢٥)

وعـن قراءة الآمـدى لأبيات البحـترى (البحـترى، ١٩٦٢م: ١٩٩-١٧٩)[١] قال المرتضى رادا: «أن الأبيات ناصعة الجمال بعيدة المثال وفى البيت الأخير .. معنى جليل القدر ثقيل الوزن له غور عميق وأس وثيق وإنما أراد البحترى أن الذى يراد من الحق من بلِّ الغُلة وإمسـاك الرمق وتمنع النفس هو فى هذا الباطل فقد تسـاويا فى الغرض المقصود وقام الحق فيه مقام الباطل.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٢٩-٢٨)

وعلى الرغم من أن المرتضى كان فى أغلب قراءاته لموازنات الامدى مؤاخذا ورادا إلا أنه كان فى بعض الأحيان يوافق الآمدى على بعض قراءاته فمثلا أنه وافق الآمدى فى أربعـة أبيـات كان قد قرأها الآمدى فوجد أنها قول ليـس بينه وبين القلب حجاب فعقب المرتضى «وقد صدق فى مقالته وأنصف فى شهادته.» (المصدر نفسه: ٣٧)

وقد يكون المرتضى فى قراءاته الرادة معنِّفا الآمدى ومزدريا عليه فمثلا أن الآمدى كان قد أعجب بأبيات للبحترى فقال: «وهذا كله إنما حسن هذا الحسن وقبلته النفوس لأنه اعتمد أن يخبر بالأمر على ما هو به من غير زيادة ولا نقصا.» (المصدر نفسه: ٣٩؛ وصقر، ١٩٧٢: ١٤٠)

فرد المرتضى ردا قاسـيا لا يخلو من التهكم والتعنيف «لا فصاحة لكلامه ولا بلاغة ولا براعة وكم من مخبر عن الشـيء على خلاف ما هو به لكلامه القبول وإلى القلوب الوصـول وهـذا يدل على أن حظ الألفـاظ فى الكلام الفصيح منظومـا ومنثورا أقوى مـن حظ المعانى وقد نبهت على ذلك فى مواضع من كلامى من أراد الاسـتقصاء وقف عليها.» (المصدر نفسه: ٣٩)

وكذلك عـارض المرتضى الآمدى حين رأى فى أبيات لأبى تمام أنها لا حلاوة فيها ولاطلاوة بالرد أن فى الأبيات «إحسانا لا يجحد وفضلا لا ينكر.» (المصدر نفسه: ١٨-

---

١. وأول الأبيات:

أما راعك الحى الحِلال بهجرهم وهم لک غـدوا بالتفرق أروع

١٧؛ صقر، ١٩٧٢م: ١٣٥)

ولما كان المرتضى يؤاخذ الآمدى فإنه كثيرا ما كان يعتذر للشاعر البحترى (المصدر نفسه: ٤٩)، وقد يدفعه تفرده فى المؤاخذة والرد أن يصطنع قراءات نقدية تبنى على افتراض أن قائلا ما تساءل طالبا منه جوابا فيقوم بالرد بقراءة معقبة ومن ذلک أن قول البحترى:

كان الكرى حظ العيون ولم أخل أن القلوب لهن حظ فى الكرى

(البحترى، ج١، ١٩٦٢م: ٢٤٣)

فقال «لقائل أن يقول: أى حظ للقلوب فى الكرى لم يخله ثم وجده؟ وأى حظ معهود للعيون من الكرى فان هذا ليس يبين فى كلامه؟ والجواب: أن العيون من حيث تودعت وسكنت عن موالاة النظر..كان لها بذلک حظ من الكرى دون القلوب.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٢٦-٢٥)

ومن المعروف أن المرتضى كان ميالا إلى البحترى الذى كان أثره فيه وفى أخيه الرضى واضحا جليا لاسيما اهتمامه بالطيف فاقتفيا أثره فى هذا الباب. (المصدر نفسه: ٢١ مقدمة المحقق)

وبذلک يتخذ التفرد عند المرتضى منحى نفسيا أساسه التنافس الشعرى والميل النقدى الذى يمنحه القدرة على الرد بحزم والمؤاخذة بجدارة.

٢. التفرد بالتمحيص والتأويل

سلک الشريف فى النقد مسلكا منهجيا يقوم على تتبع دلالات الألفاظ ومعانيها وتقليبها بما يوصل للمتلقين تأويل المعانى، متفحصا المسائل الأدبية متأملا الظواهر الشعرية بموضوعية وعلمية مدعمة بحجج عقلية فيها علم بالشعر وفنونه .. ومن ذلک تأويله هذا البيت، وهو لأخيه الشريف الرضى:

أراغب من طيف الخيال وصالا ويأتى خيالا أن يزور خيالا

(الشريف الرضى، ج٢، ١٣٠٧ق: ٦٤٠)

فقال مؤولا البيت الشعرى: «فإنما أراد أن الخيال الذى يطرق فى النوم ويتمثل

للراقـد یأبی أن یزور النحیل المدنف الذی قد صـار خیالا من النحافة والنحول، وإنما سمـی الناحل الذی قد ذاب جسـمه وذهب لحمه وغاضت نضارتـه وذهبت غضاضته خیالا تشـبیها بالخیال الذی یتمثل للنائم وهو مما لا حقیقة له ولا وجدان فأجری من زاد نحوله فصار عند الرؤیة غیر متحقق ولا متیقن مجری الخیال فی النوم الذی لا یتحقق وإنما یتخیل وما زالت الشعراء تصف الناحل بأنه خیال لا یحس ولا یدرک ولا یعلم.» (الشریف المرتضی، ۱۹٦۲م: ۹۹-۹۸)

وهو إذ یستشهد بأبیات من شعره هو فإنه قد یشرح معنی لفظ أو یفسر صورة، ومن ذلک قوله:

وکیف اهتدی والقاع بینی وبینه ولماعـة القطرین مناعـة القطر

(الشریف المرتضی، ج۲، ۱۹۵۸م: ٦۷)

فعلق مفسـرا للمتلقی رؤیته ومبینا وجهة نظـره «وإنما قلت مناعة القطر وهی علی الحقیقـة ممنوعـة لا مناعة لأقابل بین لماعة ومناعة والمعنـی مع ذلک صحیح لأنها تمنع القطـر السـائر فیها وتعدمه منها فجـاز أن یقال مناعة وان کانت هـی أیضا ممنوعة.» (الشریف المرتضی، ۱۹٦۲م: ۱۲۳)

ومن دلائل النظر النقدی المتمحص تناول المرتضی لقضایا اهتم النقد القدیم بالوقوف عندها ومنها قضیة السرقات لیتفرد برأی نقدی موضوعی یقطع بان التوارد فی الخواطر جائـز «وکمـا قلت فی کثیر من کتبی إنه لا ینبغی لمنصف أن یقول: هذا البیت مسـروق المعنی من فلان لأنه قاطع علی ما لا یأمن هذا أن یکون کذبا فربما تواردا فیه من غیر قصد والأولی أن یقال هذا نظیره وشبیهه.» (المصدر نفسه: ۱٤۱)

وبذلک یصبح بإمکان الشـاعر أن یأخذ المعنـی فیکون ثمرة خاطره لیختص به کما أن الشاعر إذا أحسن الصیاغة فلیس ذلک سرقة «ومن عبر عن معنی متداول بأحسن عبارة وابلغها فکأنه مبتدئه ومنشـئه وما یضره أن سـبق إلیه إذا کان منفردا بإحسـان العبارة عنه فحظ العبارة فی الشعر أقوی من حظ المعنی.» (المصدر نفسه: ۱٦۸)

وقد یقع التوارد من دون عمد وهذا ما لا سـلب فیه ولا نقض ایضا ومن ثم تکون المحصلة الموضوعیة من ذلک کله «وهکذا یجب أیضا ألا یطلق احد فی معنی من المعانی

أنه منفرد به وسابق إليه وإن كان لم يسمع له نظيرا ولا عثر له على شبه لأنه لا يأمن أن يكون فيما لم يبلغه ولا اتصل به ... ومن ذا الذى يحيط علما بكل ما قيل وسطر وذكر والانصاف أن يقال: فى مثل هذا المعنى ينفرد به فلان على ما بلغنى واتصل بى وانتهى إليه تصفحى وتأملى.» (المصدر نفسه: ١٤١)

وفى إطار قضية اللفظ والمعنى كان الشريف المرتضى من أنصار النسج والصياغة إذ أن الغلبة ليست فى الاشتراك فى المعانى وإنما يقع الإحسان فى حسن النسج وسلامة السبك على المعانى (المصدر نفسه: ٢١) وان حظ الألفاظ فى الكلام الفصيح أقوى من حظ المعانى (المصدر نفسه: ٣٩)، وعدَّ لفظة الدعوة هجنة لأن الألفاظ ينبغى ألا تكون عامية قلما يستعملها فصحاء الشعراء. (المصدر نفسه: ٢٠)

وان الصنعة كلما كانت أخفى كانت أحلى (المصدر نفسه: ٢٣) وان لا فضل للمعانى على الألفاظ بل «الخواطر مشتركة والمعانى معرضة لكل خاطر جارية على كل هاجس. وكيف جرى الأمر وعلى أى القسمين كان فان العنصر واحد والمعدن واحد.» (المصدر نفسه: ٩٥)

وقد تابعه فى ذلك نقاد كثيرون ومنهم ابن الأثير الجزرى (ت٦٣٧ق) الذى ذهب إلى أهمية «أن تكون المعانى المقصودة ذات ألفاظ حسنة رائقة و... معرفة اللفظ الجيد من الردىء والفرق بينهما .. واعلم أن المعنى هو عماد اللفظ واللفظ هو زينة المعنى.» (ابن الأثير الجزرى، ١٩٥٦م: ٢١)

ولذلك اهتم المرتضى ببيان معانى بعض الألفاظ مثل «الخاطر والقود وهلهل والنائر والصدى والمصرَّد والتصريد ومحسوب التى تحمل شيئين احدهما التقليل لان الشىء القليل يوصف بأنه محسوب .. والوجه الآخر أن معنى محسوب متوقع منتظر.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٤٦-٣١)

وتفرد فى شرح معانى لفظة النفس عبر تنقيب لغوى واصطلاحى يرفض المغالاة فى التأويل أو الغلو فى التفسير «والنفس عبارة فى اللغة العربية عن أشياء كثيرة منها: الدم ولذلك قالوا: ما لا نفس له سائلة .. وسميت النفساء بهذا الاسم لأجل الدم ويعبر بالنفس عن الذات يقال فعلت ذلك بنفسى وجاء زيد نفسه ونفسى تتوق إلى كذا وكذا

أى: أنا تائق إليه. والذى تهذى به الفلاسفة من أن النفس جوهر بسيط وينسبون الأفعال إليها مما لا حصول له وقد بينا فساده فى مواضع كثيرة من كتبنا ودللنا على أن الفاعل المميز الحى الناطق هو الإنسان الذى هو هذا الشخص المشاهد دون جزء فيه أو جوهر بسيط يتعلق به.» (المصدر نفسه: ٥١)

ومن صور تفرده النقدى التزامه الحياد والاعتدال من دون أى تمادٍ معتمدا تمحيص النصوص على وجوه عدة لا على وجه واحد متخذا من التأويل منهجية نقدية تتيح له تقليب النص على مختلف القراءات وهذا ما تقره نظريات القراءة والتلقى و«لقد رأى الدارسون أن من خصائص الفن أن يكون قابلا لاختلاف التأويل دون أن يفقد شيئا من قيمته لا بل انه كلما تباينت ضروب التأويل ازداد الفن قيمة وارتفع مقاما فكل أثر فنى هو حمال أوجه .. واختلاف التأويل دليل على أن وراءه حقيقة إنسانية يحاول المؤولون أن يصلوا إليها.» (محمود، ١٩٧٩م: ٤٧-٤٦)

ومن ذلک انه لما وقف عند وصف البحترى للتثنى بالرود فى (رود التثنى) فإنه وجد أن هذا الوصف لا يليق لكنه اعتذر للبحترى بوجهين «أحدهما انه استعار للتثنى وصف صاحبه للمقارنة والآخر أن سرعة الشباب لا تكون إلا مع النعمة والرطوبة فحمل على المعنى وأراد أنها ناعمة التثنى أو رطبة التعطف.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٦١؛ والبحترى، ج١، ١٩٦٢م: ١٩٤-١٩٣)

ولكونه يضع المتلقى دوما فى باله لذلک تعدد قراءاته على افتراض أن قائلا قد يقول: «التخيل والاعتقاد إنما هو بالقلب فى نوم أو يقظة ولا حظ للعين فيه فى الحالين: فالجواب أن الأمر على ذلک لكن العين فى اليقظة تكون سببا لتخيل القلب فرط حسن بعض الأشخاص وان لم يكن كذلک فأضيف التمويه إليها لأنها كالسبب فيه وفى النوم يعتقد النائم بقلبه ويتخيل انه يرى بعينه ما ليس يراه على الحقيقة فصار القلب سببا لتخيل شىء يضاف إلى العين من رؤية ما ليس يراه فكان التمويه ههنا من القلب على العين وليس يحتمل الشعر هذه المحاسبة والمناقشة والإشارة فيه تكفى.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ١٢٢)

ومن تأويلاته لمعنى أن الأرواح لا يصح عليها فى الحقيقة التلاقى والتزاور وهو

ما اعتاد السابقون على تداوله وقد تابعهم لأنه لا يريد أن يشط عن معانيهم فقال: «الشعراء لما رأوا أن الأجساد فى طيف الخيال لم تتلاق ولا تدانت نسبوا التلاقى إلى الأرواح تعويلا على قول من جعل النفس لها قيام بنفسها وأنها غير الجسد وان التصرف لها: فجرينا على هذه الطريقة وان كان ذلک باطلا فى التحقيق.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ١٣١)[١]

وقد تتخذ نمطية التفرد فى التأويل عند المرتضى أن يأتى بوجوه قرائية كما فى شرحه لقوله (ما زار إلا فى سنة) الذى حمله على وجهين تأويليين «إحدهما انه ما زار لجبنه وشدة خوفه إلا زيارة هى تخييل وغير تحقيق والوجه الآخر أن يريد انه ما زار إلا فى الليل فعبر عن الليل بما لا يكون فى الأغلب إلا فيه: والليل يستتر بظلمته الجبان الخائف.» (المصدر نفسه: ١٦٧)[٢]

ومن آرائه الموضوعية التى اعتمدت أسلوب التعليل رفضه التفريق بين لذة الخيال ولذة اللقاء والسبب أنه «وبعد زوال الأمرين ومفارقة الحالين ما احدهما فى فقد متعته وزوال منفعته إلا كصاحبه» (المصدر نفسه: ٥)، وفسر إعجابه باستعارة أبى تمام فى "سرا من الأجسام" مجوزا للشاعر أن يستعير فى بعض كلامه تغريبا وتقريبا. (المصدر نفسه: ١٩)[٣]

ولم ير فى الشعر الذى يتعجب من اهتداء الطيف إلى المضاجع تجديدا أو ابتكارا والسبب أنها «جادة مسلوكة وطريق مهيع وما ورد فى ذلک أكثر من أن يحصى.» (المصدر نفسه: ١٠٢)

وعلل كيف أن الشعراء قد تعجبوا من اهتداء الطيف بالقول: «لأنهم فرضوا زيارته زيارة حقيقية وطروقا صحيحا فتعجبوا مما يتعجب من مثله فى ذلک من طى البعد فى اقصر زمان ومن الاهتداء بغير هاد ولا مرشد مع تراكم الظلم وتشابه الطرق وفقد الظهر

١. وينظر: ديوان الشريف المرتضى، المجلد الأول، ٢٦٥؛ والبيت هو:
تلاقينا بأرواح وفارقنا بأجساد
٢. وينظر: ديوان الشريف المرتضى، المجلد الثالث، ٣٠٩؛ والبيت هو:
من زائر ما أجبته ما زار إلا فى سنة
٣. والبيت هو: يا لها لذة تنزهت الأر واح فيها سرا من الأجسام

ومن فرض شـیئا أجری أوصافه له علی ما فرضه دون ما هو علیه فی نفسه.» (المصدر نفسه: ۱۰۸)[۱]

وشرح سبب اسناد (یخدعنی) إلی الکری «إنما أضفت خدیعة الطیف إلی الکری لأنه لولا النوم وأسبابه ما تخیل الطیف ولا تمثل.» (المصدر نفسه: ۱۲۰)

وبین لمَ جعل عین الرقیب مطروقة بالکری بالقول: «ولما کانت طرفة العین تحجز عن أبصارها وکان الکری أیضا کذلک جعلت عین الرقیب من حیث منعها النوم عن الرؤیة کأنها به مطروقة والعادة أن عین المحب تموه علی قلبه حتی یستحسـن ما لیس بحسن أو مـا لم یبلغ الغایة التی تخیلهـا واعتقدها وفی النوم انقلبت هذه العادة وصار القلب یخیل أن العین تری ما لیس تراه علی الحقیقة.» (المصدر نفسه: ۱۲۲-۱۲۱)

وقـد دفعه اعجابه ببیت من شـعره کان قد وجده فی غایـة التحکم فی القلوب إلی تفسیر ذلک بالقول: «لأن انقضاء الطیف بغیر اثر ولا بقیة کسطور تمحی بغیر اثر ولا بقیة وإضافة المحو إلی الصبح فی موقعه وموضعه.» (المصدر نفسه: ۱۷۹؛ والشریف المرتضی، ج۲، ۱۳۰۷ق: ٦۰)[۲]

وعـادة ما تخلو قراءاتـه الممحصة والمؤولة من التعنیـف أو التهکم أو المغالاة إزاء النقاد أو الشعراء کونه یظل ملتزما بموقف منصف عماده التعلیل والاحتجاج والتأویل.

۳. التفرد بالانحیاز أو التغاضی

إن لهذا الشکل من التفرد الإبداعی سببا ذاتیا ومیلا انطباعیا یجعل المرتضی یتحیز إلی احدهم نظم شعرا فی الطیف أو یتغاضی عن اخر متجاهلا له أو متحاملا علیه..

ومـن صـور ذلک التفرد ما کان من انحیاز المرتضـی إلی البحتری فی معرض الرد علـی مـا أخذه الامدی علیه من إمکانیة أن یبدل قولا بقـول آخر فاعتذر له المرتضی بأن «وزن الشـعر لم یمکنه من ذلک فعدل إلی لفظ آخر وما أراد إلا هذا المعنی بعینه.» (الشریف المرتضی، ۱۹٦۲م: ٤۹)

---

۱. والبیت هو: إنی اهتدیت وکیف زرت وبیننا دون الزیـارة مربـخ وزرود
۲. والبیت هو: ولما انقضی ما صرت إلا کأننی محوت بضوء الصبح منه سطورا

ولا غرو أن نجد لديه تعصبا لأولئک الشعراء الذين أولوا الطيف اهتماما إذ رأى أن العتابى مجود فى أربعة أبيات وان مسلم بن الوليد أحسن فى بيتين وان النمر بن تولب أحسن فى بيتين (المصدر نفسه: ٨٧-٥٥) والسيد الحميرى «قوى الطبع جزل اللفظ سليم التصرف والتقلب» (المصدر نفسه: ١٠٧) وإن ذا الرمة أحسن فى بيتين. (المصدر نفسه: ١١٣)

وعلى الرغم من أن الشعراء الذين جرى ذكرهم فى سياق التحليل والقراءة كثيرون وهم: ابن المعتز ولجران العود والكميت وقيس بن الخطيم ومالک بن اسماء ودعبل وجرير وطرفة وعمرو بن قميئة وقيس بن الملوح وعبيد بن الأبرص والفرزدق والأقرع بن معاذ وذو الرمة؛ إلا إن إعجابه بالبحترى وما قاله فى طيف الخيال قد حمله على التحيز غاضا الطرف عن أى شاعرية أخرى متقدة فى عصره.

واغلب انتقاداته للآمدى تأتى من باب التعصب للبحترى والانتقاد لشعر أبى تمام وهو ما كان قد صرح به فى المقدمة «ولأبى تمام فى هذا المعنى التافه اليسير فانه ما عنى به ولا رزق منه ما رزق البحترى فانه كان مغرما متيما بالقول فى الطيف فأكثر فيه وأغزر مع تجويد وإحسان وافتنان.» (المصدر نفسه: ٥-٤)

وعلى الرغم من تقديم البحترى على أبى تمام إلا انه كان يقف إلى جانب أبى تمام متحاملا على الامدى قائلا: «وما رأيناه أثنى على البيت الثانى ..بما يستحقه وقدح فى البيت الأول بما ليس يقدح على اعترافه فليته جمع بين القدح للمقدوح والمدح للممدوح.» (المصدر نفسه: ١٢)[١]

ولكى لا يبدو فى قراءاته تلک متغاضيا عن الامدى متحاملا عليه فإنه قد يستدرک بأن الامدى قد يعترض على مثل هذه القراءة كأن يقول: «قد مدحت جملة الأبيات وقلت إنها حسان وأغراضها مستقيمة قلتُ هذا مدح تكلفته وما نراک أذا أعجبک أو أطربک مغنى للبحترى تقتصر على هذا القدر من المدح وقد كان ينبغى أن تخص البيت

١. والأبيات ثلاثة أولها:

زار الخيال لها ، بل ازاركه فكرٌ اذا نام فكر الخلق لم ينم

وكذلک ينظر: الصفحة ٤ من هذا البحث.

الثانى بزيادة الإطراء والمدح وتوقظ على جودة طرحه وسبكه فانه لا يجرى مجرى ما تقدم عليه ولا تأخر عنه وما فعلت ذلک.» (المصدر نفسه: ١٢)

وجدير بالذكر أن الشريف المرتضى كان قد تغاضى فى كتابه طيف الخيال عن الوقوف عند شعر المتنبى كما تجاهل نقاده ..

وقد ذهب المحقق الصيرفى إلى أن السبب هو أن «فى شعر المتنبى هجوا فى بعض العلويين ..ولكننا لم نجده يطلق لسانه فى المتنبى كما أطلق بعض معاصريه ألسنتهم فيه.» (المصدر نفسه: ٢٥)

فى حين أنه انحاز إلى عمرو بن قميئة كونه أول من نطق بوصف الطيف «فانظر إلى هذا الطبع المتدفق والنسج المطرد المتسق من أعرابى قح قيل أنه مفتتح لوصف الطيف وكأنه لانطباع سبكه وجودة رصفه قد قال فى هذا المعنى الكثير ونظم منه الغزير وقلّب ظاهره وباطنه وباشر أوله وآخره وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين وإجادة المجيدين ما سلک منهجه وأخرج كلامه مخرجه لكن الله تعالى أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة وهداهم من مسالک البلاغة إلى ما هو ظاهر باهر ولهذا كان القرآن معجزا وعلما على النبوة لأنه اعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم.» (المصدر نفسه: ١٠٠-٩٩)

والميل التأثرى قد يدفع المرتضى إلى أن يمدح الطيف ويتغنى به تارة أو قد يتحامل عليه مقللا من شأنه تارة أخرى، ومن أمثلة ذلک أنه مدح الطيف فهو «وصل من قاطع وزيارة من هجر وعطاء من مانع وبذل من ضنين وجود من بخيل وللشىء بعد ضده من النفوس موقع معروف غير مجهول» (المصدر نفسه: ٥) وانه «تمتع وتلذذ لا يتعلق بهما تحريم ولا يدنو إليهما تأثيم ولا عيب فيهما ولا عار.» (المصدر نفسه: ٦)

ولكنه فى موضع آخر ذمه ورآه باطلا جامعا بين الاستحسان مدحا وإشادة والاستغراب ذما وإبطالا وأكد ذلک بالقول: «ولى فى وصف الخيال بأنه باطل ومحال زائل ..ومما يتكرر فى شعرى من هذا المعنى كثير..وإنما اشرنا ههنا إلى القليل منه.» (المصدر نفسه: ١١٤)

وقد يدفعه تعجبه بما نظمه هو من شعر فى الطيف إلى تقديم نقد انطباعى ذاتى فيه علو للأنا إلى درجة التباهى والزهو كقوله معقبا على قطعة شعرية له «البيت الثانى

عجيب المعنى لان تخيل الطيف إنما يتم بالنوم الذى حجز بين اليقين وبين النائم فاعتقد ما لا حقيقة له..وما وجدت إلى الآن تشبيه الطيف الذى لا مقتنى له ولا محصول باللفظ الخالى من معنى الباطل من غرض وان كان قيل قديما وحديثا أن الطيف باطل وزور ومحال ولا عائدة له فما شبهوه هكذا باللفظ الفارغ فهذا التشبيه هو الغريب.» (المصدر نفسه: ١٤٣)[١]

ولا خفاء أن فهم الذات للعملية الإبداعية واستشراف آفاقها إنما ينعكس على أداء العملية النقدية أيضا وقد بدا تأثير المرتضى الشاعر فى المرتضى الناقد قويا ليغدو فى بعض نقده انحيازيا ترتفع لديه نبرة الأنا ويعلو صوت الذات، ومن ذلک ما أورده الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) عن أبيات نظمها بنفسه وأخذ بشرحها فى قوله:

لا طرق الطيف الذى كان من أكبر همى أنه يطرق

(الشريف المرتضى، ج٣، ١٣٠٧ق: ٢٩٩)

فقال : «إنما قلت (لا طرق الطيف) لأننى بنيت هذه القصيدة على ذم إتباع الهوى والانخراط فى سلكه لا فائدة له من طروق الطيف. وإنما جعلت ظنون النائم وفساد أحاديته لنفسه واعتقاداته..» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ١٥١)

وقد أخذه تعصبه إلى الاستزادة فى التمثيل بشعره على حساب شعر الطائيين ليكون ذلک أهم ملمح فى التفرد الإبداعى بالتحيز فقد شغل شعر الشريف المرتضى ما يقارب ثلث الكتاب مكررا عبارات "ولى من قصيدة أوله" (المصدر نفسه: ١٣٨-٢٧) أو "ولى من قطعة مفردة" أو "وشمل قولى". (المصدر نفسه: ١٨١-١٤٣)

وقد يكون لصلة الرحم أو القرابة دور فى الانحياز فمثلا انه لما مثّل ببيتين من شعر دعبل بن على الخزاعى ذكرهما من دون تحليل (المصدر نفسه: ٥٨) ولكنه لما مثّل بقصيدة بائية من تسعة أبيات من شعر أخيه الشريف الرضى فانه قدم لها قراءة طويلة شارحا معانى بعض الأبيات. (المصدر نفسه: ٩٤-٩٣)

ليكون المرتضى فى هذا الشكل من أشكال التفرد قد مارس دورين معا أحدهما

---

١. ويعنى بذلک قوله : إنما الطيف كلفظ فارغ ما فيه معنى،
ينظر: ديوان الشريف المرتضى، المجلد الثالث، ٣٠٣.

دور الشـاعر الذى لا ينفك يتحرى السبق فى المعانى والآخر دور الناقد الذى يتحرى الصـدق والموضوعية وتبقى الفضيلة انه أراد التفرد فتفرد وأراد المغالبة فغلب وما كان ذلک ليكون لولا تعاضد الوظيفتين الإبداعيتين داخل ذاته وظيفة الشعر ووظيفة النقد.

٤. التفرد بالسبق والصدارة

كثـيرا ما تباهى الشـريف المرتضـى بالتفرد فى ابتكار المعانى الجديدة والسـبق فى ابتداعها متفاخرا بذلک موجها نقده لمعانى طيف الخيال وجهة تفضيلية موازنا بين شعره وشعر الآخرين.

وقـد يكون وراء ذلک البحث عن السـبق الريادى والرغبـة فى التصدر الافتخار بالشاعرية اعتدادا بما حباه الله من موهبة وفطرة.

ولعلنـا لا نغالى إذا قلنا أن المرتضى ما وضع هذا المصنف إلا رغبة فى إثبات تفوق الأخويـن فى النظم فى الطيف على الطائيين، وقد قـال المرتضى فى المقدمة: «أن اعتمد على إخراج ما فى ديوانى الطائيين ثم ما فى ديوانى شـعرى وشـعر أخى نضر الله وجهه وأحسن منقلبه فانقله على جهته من غير إخلال بشىء منه.» (المصدر نفسه: ٤)

وأغلب مفاخراته إنما تأتى من منطلق أنه جوّد فى طرق معانى الطيف أكثر من غيره ولا سـيما البحـترى وقد ختم كتابه طيف الخيال بتأكيد هـذا الأمر «وقد أخرجت من ديوان شـعرى فى وصف الطيف ثلاثمائة وخمسة وعشـرين بيتا وهذا أكثر مما أخرجناه للبحـترى على شـغفه بوصف الطيف ولهجه بـه، فان الذى أخرجناه لـه مائتان ونيف وعشـرون بيتا بل هـذا المبلغ الذى اختصصنا به يزيد عددا على كل ما سـطر فى هذا المعنى لمكثر من الشـعراء ومقل فأمـا التجويد فالتقدير يخرجـه والفطنة مع الإنصاف الحكم فيه ولعله أن اتفق منا نظم شىء فى هذا المعنى ضممناه إلى هذا الكتاب وأضفناه إليه.» (المصدر نفسه: ١٨١)

وقـد تأخـذه إطراءاته الذاتية فى التصدر والتفـرد أن يجزم بأن لا نظير له فى ذلک مسـتعملا عبارات مثل «أن قولى ...أجود وأشـد تحقيقا مـن كل نظير له فى ذا المعنى» (المصدر نفسه: ١٥١) أو أن «هذه الأبيات لا فقر بها إلى تفسير وتنبيه كما لا حاجة بها

إلى مديح وإطراء» (المصدر نفسه: ١٥٣) أو أن «من شعرى فانى كررته وقد بينت سبقى إليه.» (المصدر نفسه: ١٦٥)

ونظرا لدقة المرتضى فى التمحيص والنظر فانه إذا ما افتخر بالسبق والتفرد والريادة فانه يعود ليقرر أن ليس لأحد أن يقطع بأنه لم يسمع مثله أو لم يقل أحد قبله (المصدر نفسه: ١٤١)، فمن ذلک أنه بعد أن ذكر قصيدة له ومنها قوله:

وليلة بتنا بالابيرق جاءنى على نشوة الأحلام وهنا رسولها
خيال يرينى أنها فوق مضجعى وقد شط عنى بالغوير مقيلها

(الشريف المرتضى، ١٣٠٧ق: ٣٧-٣٦)

علق مفتخرا بشاعريته وأنه قد سبق فى معنى (الخيال رسولها) مشيرا إلى أن هناک نظيرا له فقال: «وإنما أردت الطيف رسولها لأنه مذكر بها ومشوق إليها ولأنه مثال لها ومترجم فجرى مجرى الرسول ....وكان عندى أنى سابق إلى وصف الطيف بأنه رسول ومتفرد بهذا المعنى لأننى ما كنت وقفت فيما تصفحته ورويته على نظير له إلى أن رأيت لأشجع السلمى فيما رواه أبو عبيد الله المرزبانى عن شيوخه ...ووجدت أيضا فيما استأنفت تصفحه وتأمله للبحترى.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ١٤٠-١٣٨)

وتباهى بشعره مقدما نفسه على سائر الشعراء الذين ناظروه المعنى مثل مجنون ليلى والتمار والنظار الفقعسى وعبيد بن الأبرص والغلابى والبحترى والحميرى والرضى والفرزدق وذو الرمة. (المصدر نفسه: ١١٣-١٠٧)

ولما وازن بيتين من شعره ببيت لأبى تمام علق قائلا: «وهذا المعنى أيضا مما ابتدعته واخترعته فى وصف الطيف لأننى ما علمت سابقا إليه وعاثرا به.» (المصدر نفسه: ٧)

ولكى يدلل أكثر على تفرده وسبقه فانه عادة ما يجزم بأن معنى الطيف يجىء فى شعره كثيرا مستخرجا من ديوانه أبياتا عديدة فى طيف الخيال (المصدر نفسه: ١٦٨-١١٩)، مقتصرا على استخراجها من دون قراءة (المصدر نفسه: ٧٠-٧٣) وقد يقطع أن قوله:

ومن ملتقى عذب المذاق ريحته فلم يرض لى حتى ربحت أثامه

(الشريف المرتضى، ج٣، ١٣٠٧ق: ٢٢٢)[1]

١. وفى الديوان وتحته وليس ريحته.

مـا وجـد له نظیرا لأن فیه «معنی فی الطیف عربیا مـا ظفرت بنظیر له إلی الآن فی الشـعر المدون لان بلوغ الغایة فی المتعة بطیف الخیال لا یکون إلا مباحا لا أثم فیه ولا عار وقد یکون حراما وإثما وعارا لو کان فی الیقظة وعلی الحقیقة وقد تکرر هذا المعنی فی شعری.» (الشریف المرتضی، ۱۹۶۲م: ۱٤٦)

ولما اشتبه علیه أن قد یکون البحتری قد سبق فی المعنی فکان جوابه «أن البحتری إنمـا عنی أن النوم یبذل لما جدواک بعد أن کانت ممنوعة فعبر عن البذل بالتحلیل وعن المنع بالتحریم وذلک ملیح منه ولم یرد التحلیل والتحریم الحقیقیین وإنما أراد أنّا لا نلتقی إلا فی النـوم الذی بذل من الالتقاء ما کان ممنوعا فکأنه أحل حراما» (المصدر نفسـه: ۱٤۷)، وبذلک دحض أن یکون البحتری قد سـبق إلی المعنی أو أن الفرزدق قال مثله لأن ما قصداه هو خلاف ما عناه المرتضی. (المصدر نفسه: ۱٤۹-۱٤۷)

وقد ینتصر لآرائه فی السـبق والتصدر بدعوی أن من حق «من أخرج إلیه خاطره بعـض المعانی مـن غیر أن یکون سمعـه ولا قـرأه ولا احتذاه فله فضل الاسـتخراج والاسـتنباط الدالین علی قوة الطبع وصحة الفکر وما علیه بعد ذک أن یکون قد تقدمه متقـدم فیه فوقع التوارد فیه من غیر عمد فان تجویز ذلک لا یسـلب مدحا ولا ینقص فضلا.» (المصدر نفسه: ۱٤۲-۱٤۱)

وربمـا اوقعـه هذا الولع بالتفرد سـبقا وتصدرا فی مأزق تفضیلـی بین أن یکون هو السابق فی معنی أو یکون الشریف الرضی هو الأسبق ومن ذلک انه لما سبق فی ابتکار معنی کان قد سمعه الرضی فأعجب به، وشـهد أهل الأدب بأنه مستبدأ غیر مسبوق إلیه ولا متعرض له أما الرضی فانه نفسـه شهد لهذا المعنی بأنه مبتکر مخترع وأنه مستحسن مستعذب. (المصدر نفسه: ۹۵-۹٤؛ الشریف المرتضی، ج۳، ۱۳۰۷ق: ۹)[۱]

ولکن تبین له بعد حین أن أخاه الرضی قد طرقه فتساءل «ولست اعلم کیف جرت الحـال فی هـذا المعنی وهل قصد رحمه الله إلی نظمه علی علم حتی لا یخلو شـعره من هذا المعنی المسـتغرب المسـتعذب أو انسی رحمه الله سماعه له وقذف به خاطره وجری

۱. والأبیات هی: وعهدی بتمویه عین المحب ینـم علـی قلبـه الطائر
فلما التقینـا برغم الرقـا د موه قلـبی علی ناظری

على هاجسه، فأثبته تقديرا منه أنه مبدع له لا متبع فيه فكثيرا ما يلحق الشعراء ذلک فيتواردون فی بعض المعانی المسبوق إليها وقد كانوا سمعوها فأُنسوها فالخواطر مشتركة والمعانی معرضة لكل خاطر جارية على كل هاجس وكيف جری الأمر وعلى أی القسمين كان فان العنصر واحد والمعدن واحد وأينا سبق إلى معنى فالآخر بالنجر والسنخ (الأصل) إليه سابق وبه عالق.» (الشريف المرتضى، ١٩٦٢م: ٩٥)

وبذلک الموقف النقدی والتأويل الموضوعی استطاع أن ينقذ نفسه من الإحراج عبر رؤية فاحصة ترى ان الخواطر يمكن أن تتوارد وأن المعانی مشتركة ومن ثم لا يكون هناک فرق أن يكون المرتضى سابقا أو الرضی.

وكثيرا ما سعى الشريف المرتضى إلى أن يكون ناقدا معتدا بمقدرته فی نظم الشعر كما أراد أن يكون شاعرا مميزا بالسبق فی ابتكار معانی طيف الخيال وهذا ما توصلت إليه استخراجاته من شعر الشعراء لاسيما البحتری لكی يؤكد تقدمه فی القول بالطيف على سائر الشعراء المتقدمين والمجايلين انطلاقا من شاعرية فذة وقدرة نقدية متميزة.

النتيجة

بناءً على ما تقدم يتبين لنا أن الشريف المرتضى تمتع بقدرات فنية ومميزات قرائية جعلته متفردا إبداعيا سواء أكان ذلک على مستوى المنهجية النقدية شرحا وتفسيرا وتأويلا، أم كان على مستوى الرؤية الشاعرية فنا وجمالا؛ مستلهما ذلک كله من موهبة أصيلة ولغة نقدية عالية وخيال شاعری بارع.

ولقد اتخذ التفرد الإبداعی لدى الشريف المرتضى أربعة أشكال؛ اتجه الشكل الأول؛ نحو الرد على الآمدی فی موازنته بين الطائيين فضلا عن مؤاخذة شعراء آخرين، واهتم الشكل الثانی من التفرد، بالتحلی بدور الناقد الموضوعی الذی يهتم بالتمحيص والتأويل مقدما وجوها قرائية متعددة ومعللة بموضوعية وعلمية.

وتمثل الشكل الثالث من التفرد، بتوجهات ذاتية فی النقد أساسها النظر الانطباعی انحيازا أو تحاملا مصوبا للآخرين أو منتقدا لهم، بحسب ما تزوده به ذائقته من دقة فی الحدس والفهم والبيان، وعنى الشكل الرابع من التفرد، بالسبق فی طرق معانی طيف

الخیال وابتکارها والتباهی بالتصدر الشـعری فیها لیکون شاعرا ناقدا إلی جانب کونه ناقدا شاعرا.

المصادر والمراجع

ابن الاثیر الجزری، ضیاء الدین. ۱۹۵٦م. الجامع الکبیر فی صناعة المنظوم من الکلام والمنثور. تحقیق مصطفی جواد وجمیل سعید. بغداد: مطبعة المجمع العلمی العراقی.

الآمدی، الحسن بن بشر. ۱۹۷۲م. الموازنة بین شعر أبی تمام والبحتری. تحقیق السید أحمد صقر. الطبعة الثانیة. القاهرة: دار المعارف.

البحتری. ۱۹٦۲م. دیوان البحتری. تحقیق حسن کامل الصیرفی. المجلد الأول. الطبعة الثالثة. القاهرة: دار المعارف.

حمادی، صمود. ۱۹۸۱م. التفکیر البلاغی عند العرب مشروع قراءة. تونس: المطبعة الرسمیة للجمهوریة التونسیة.

الدسـوقی البساطی، إبراهیم. ۱۹٦۱م. الرسالة العذراء ضمن کتاب رسائل البلغاء. تحقیق. مصر: دار المعارف.

الشریف الرضی، محمد بن الحسین الموسوی العلوی. ۱۳۰۷ق. دیوان الشریف الرضی. المجلد الثانی. بیروت: لانا.

الشـریف المرتضی، علی بن الحسـین الموسـوی العلوی. ۱۹٦۲م. طیف الخیال. تحقیق حسـن کامل الصیرفی. مراجعة إبراهیم الأبیاری. الطبعة الأولی. مصر: دار إحیاء الکتب العربیة.

ـــــــــــــ ۱۹۵۸م. دیوان الشریف المرتضی. تحقیق عیسی الحلبی. المجلدالثانی. لامک: لانا.

عزام، محمد ومحمد محمد عبدة. ۱۹۷۰م. تحقیق دیوان أبی تمام بشرح الخطیب التبریزی. المجلد الثالث. الطبعة الثانیة. القاهرة: دار المعارف.

قصاب، ولید. ۱۹۸۵م. التراث النقدی والبلاغی للمعتزلة حتی نهایة القرن السادس الهجری. الدوحة: دارالثقافة.

لطفی، عبدالبدیع. ۱۹۷۰م. الترکیب اللغوی للأدب. الطبعة الأولی. مصر: مکتبة النهضة المصریة.

مبارک، زکی. ۱۹۵۲م. عبقریة الشریف الرضی. الجزء الأول. الطبعة الثانیة. القاهرة: مطبعة المجازی.

محمود، زکی نجیب. ۱۹۷۹م. فی فلسفة النقد. الطبعة الأولی. بیروت: دار الشروق.

الملوحی، عبدالمعطی الحمصی وأسماء ابن الشجری. ۱۹۷۰م. تحقیق الحماسة الشجریة لهبة الله بن حمزة العلوی الحسنی. الجزء الثانی. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.